مجلة رفوف – مخبر المخطوطات – جامعة أدرار – الجزائر ـــــــــــــــ المجلد: 12 / العـدد:01 (مـــاي 2024) ص 381– 396
ISSN: 2335–1381 EISSN: 2602–5949 Legal Deposit: 2013–6352

الشيخ محمد بن إسماعيل ابن كوجك علي: قراءة في سيرة أحد العلماء الكراغلة بمدينة قسنطينة

Shaykh Muhammad bin Ismail bin Kujak Ali: A Reading in the Biography of one of the Koulouglis Scholars in Constantine

الدكتور: إسماعيل زيان
Ismail ZIANE
أستاذ تعليم متوسط (الجزائر)، ziane_ismail2005@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2023/01/22	تاريخ القبول: 2023/11/08	تاريخ النشر: 2024/05/16

الملخص: تمثّل هذه الدراسة قراءة في سيرة لأحد أعلام قسنطينة في القرن الثالث عشر الهجري، سيرة لأحد علماء الكراغلة، وأقصد بذلك الشيخ محمد بن إسماعيل ابن كوجك علي، رئيس كتّاب صالح باي ووزيره فيما بعد، ولهذا ستتعرّض هذه الدراسة لحياة هذا العلم مبيّنة أصله وعائلته ونشأته وتكوينه العلمي، وعلاقته بالعلماء داخل قسنطينة وخارجها، ثمّ التطرّق إلى رحلته الحجازية التي قام بها، وما لها من أثر على تحصيله العلمي، وذلك من خلال التقائه بالشيخ مرتضى الزبيدي المصري. وستحاول هذه الدارسة أيضا ذكر الجهود التي كان يقوم بها الشيخ محمد ابن علي كوجك من أجل تحصيل الكتب واقتنائها، ثم حبسها على عائلته من بعده، أو حبسها على المدرسة التي بناها صالح باي.

كلمات مفتاحية: محمد ابن علي كوجك؛ الكراغلة؛ قسنطينة؛ صالح باي؛ الأوقاف.

Abstract

This study represents a biography of one of the well-known figures in the 13th century Hejira in Constantine. It is a biography of one of the scholars of the Koulouglis, referring to Shaykh Muhammad bin Ismail bin Kujak Ali, the chief scribe of Saleh Bey and later his minister. Therefore, this study will delve to the life of this scholar, clarifying his origins, family background, upbringing, and scholarly formation, as well as his relationship with scholars inside and outside Constantine. Furthermore, it will explore his journey to the Hijaz and its impact on his academic pursuits, particularly through his encounter with Shaykh Mortadha Al-Zabaidi Al-masry. This study will also attempt to mention the efforts made by Shaykh Muhammad bin Ali Kujak in acquisition and preservation of books, whether keeping them within his family or within the school of Saleh Bey.

Keywords: Muhammad bin Kujak Ali, Koulouglis, Constantine, Saleh Bey, Endowments.

المؤلف المرسل: د. إسماعيل زيان، **الإيميل:** ziane_ismail2005@yahoo.fr

1.مقدمة:

لا تزال الحياة الثقافية للأتراك بالجزائر في العهد العثماني غامضة عند الباحثين لعدّة أسباب منها القطيعة التي وقعت بين الأتراك والجزائريين بعد سيطرة الاحتلال الفرنسي على معظم التراب الجزائري، حيث انتقلت بعض العائلات التركية إلى بعض الدول الإسلامية الواقعة تحت الحكم العثماني، ومنها نهب وسلب القوات الفرنسية للأرشيف العثماني الذي كان يحفظ جانبا كبيرا من المخطوطات التي توثّق لتلك الحياة الثقافية، وإسهامات العلماء الأتراك والكراغلة في الحركة العلمية بأقاليم الجزائر شرقها وغربها.

ولهذا كان العهد العثماني في الجزائر يُتَنَاوَلُ من بعض الباحثين من الناحية السياسية والعسكرية فقط، حيث كثرت الدراسات والمؤلّفات حول ذلك، ممّا خلق لبسًا عند المتلقي، فجعله يرى ذلك العهد بنظرة سوداء خالية من الحسنات، وانعكس ذلك على تعاطي الدارسين لمسألة الوجود العثماني على أنّه احتلال من جهة، وفرض للجباية والضرائب على أهل الجزائر من جهة أخرى.

وقد تفطّن بعض علماء الجزائر لهذا التوجّه في الكتابة عن تاريخ الأتراك في الجزائر، فقاموا بإحياء ما تبقّى من الحياة الثقافية في ذلك العهد، ومن جملتهم الأستاذ أبي القاسم سعد الله، والأستاذ محمد بن عبد الكريم الزموري، وغيرهما، حيث انصبّت جهودهم على تسليط الضوء فوق الجانب المظلم من الحياة الثقافية بالجزائر في عهد الأتراك، فبدأت حركة تحقيق التراث المخطوط، وبدأت بعض الدراسات بالظهور على شكل مقالات أوكتب.

ولإدراكي للعمل الكبير الذي قام به هؤلاء الباحثون، وما وصلوا إليه من نتائج، قمتُ بالمشي على خطاهم، وذلك بوضع هذه الدراسة المتمثّلة في قراءة لسيرة أحد العلماء الكراغلة في أواخر العهد العثماني، وهي سيرة الشيخ محمد بن إسماعيل ابن كوجك علي القسنطيني، واضعا بعض الإشكالات التي من شأنها تجلية ما أنا بصدد دراسته، منها:

- كيف كانت الحياة الثقافية بقسنطينة في العهد العثماني؟
- من هم الكراغلة، وكيف كانت مكانتهم بقسنطينة؟
- من هو الشيخ محمد بن إسماعيل ابن كوجك علي؟
- كيف كانت علاقته بعلماء عصره؟
- كيف كانت قيمته العلمية والسياسية بقسنطينة؟

2. الحياة الثقافية في إيالة الجزائر:

بعد إنقاذ خير الدين وبابا عروج الجزائر من الغزو الاسباني، دخلت الجزائر تحت لواء الخلافة العثمانية، وأصبحت تسمّى "إيالة الجزائر" وقُسِّمت إلى أربعة أقسام: دار السلطان وكانت مقرّا للحكم، وبايلك الشرق وعاصمته قسنطينة، وبايلك الغرب وعاصمته وهران، وبايلك التيطري وعاصمته المدية.

وقد كانت إيالة الجزائر حاضرة من الحواضر العلمية، وكانت ملتقى للعلماء وطلبة العلم، حيث كثرت مجالس العلم التي كانت تُعنى بمدارسة القرآن قراءة وشرحا، وكتب الحديث رواية ودراية، وكثرت شروح متون الفقه المالكي كمختصر «خليل» و«الرسالة» وغيرها، وبعد دخول العثمانيين الذين كانوا يتبنّون الفقه الحنفي (سعد_الله، 2007، صفحة 149/1)، بدأت الحركة العلمية الفقهية بالتسارع، حيث نصبت بعض مجالس المناظرات الفقهية بين المذهبين المالكي والحنفي ممّا خلق جوّا للبحث والنظر.

ومن أشهر المراكز العلمية التي كانت في الجزائر، نذكر «الجامع الكبير» الذي كان مقرّا لمفتي المالكية ومفتي الحنفية وكبار الفقهاء، وكان هذا الجامع مقصدا للباشا ونائبه، خاصة عند وجود قضايا تحتاج إلى فصل فيها، ومن أشهر العائلات التي تولّت الفتوى المالكية عائلة قدّورة. وقد اشتهرت جوامع الجزائر أيضا بدروس الشيخ «سعيد قدّورة» والشيخ «علي الأنصاري»، والشيخ «أبي عيسى الثعالبي» (زيان، 2022، صفحة 17).

وتأتي أيضا حواضر بايلك الغرب كمازونة وتلمسان ووهران، حيث كانت المدارس والزوايا ركنا أساسيا في نشر العلوم كالمدرسة المحمدية بمعسكر، ومدرسة مازونة التي كان لها نظام راسخ وتقاليد متينة استمدتها من تلمسان والأندلس والمغرب الأقصى، فقد كانت من أقدم المدارس التي أسست في العهد العثماني، واشتهرت بالفقه والحديث وعلم الكلام (سعد_الله، 2007، صفحة 285/1).

1.2 الحياة الثقافية في قسنطينة:

أمّا في بايلك الشرق، فقد كانت مدينة قسنطينة إحدى الحواضر العلمية، ومنارة من منارات العلم، وقد اجتمع فيها جمع كبير من العلماء إمّا بالنشأة أو الاستقرار، فكانت منهم عائلة الفكون التي أنجبت أحد أطواد العلم آنذاك وهو الشيخ عبد الكريم الفكون الذي ذاع صيته في المغرب والمشرق، وقبله الشيخ ابن قنفذ القسنطيني صاحب التآليف والشروح، وقد ساهم بعض بايات مدينة قسنطينة في تطوير مراكز العلم فيها من مساجد ومدارس، وعن ذلك يقول (بول قافاريل): «كانت قسنطينة على عهد الأتراك...عاصمة دينية، وكان العلماء فيها يتمتّعون بالسيادة المطلقة والنفوذ التام، كما أنّها كانت غاصة بعدد كبير من الطلبة يغترفون من 25 مدرسة للعلوم الدينية

والأخروية....إنّ قسنطينة كانت –حقّا– مبعث نور الجزائر، كما كانت تشرّف العلماء وتقدّرهم حقّ قدرهم» (ابن–ميمون، 1981م، صفحة 52).

ولا شك أنّ التلاقح العلمي الذي حدث من جراء التقاء العلماء من الشرق والغرب كان له أثر في ازدهار الحركة العلمية نوعا ما، حيث نجد أنّ العلماء في قسنطينة كانوا على تواصل بعلماء الجزائر ومليانة وتلمسان، إضافة إلى الرحلات الحجازية التي كانت تمرّ بقسنطينة قادمة من جهة الغرب، حيث كان الركب الجزائري تحت إمرة أمير الحج الذي كان لا يخرج من دائرة عائلة الفكون القسنطينية.

ومع تطور الحياة الثقافية في قسنطينة بدأت الخزائن والمكتبات العامة والخاصة بالازدياد، فكانت مدينة قسنطينة خزانا للمخطوطات والرسائل العلمية في شتى الفنون، فقد كان أهل قسنطينة مولعين باقتناء الكتب والبحث عن نفائس المخطوطات، أنّى وُجِدَتْ، وقد وجدت فرنسا عند دخولها لمدينة قسنطينة 17 مكتبة خاصة تحتوي على 14000 من المجلّدات (ابن–ميمون، 1981م، صفحة 61).

هذا وقد ازدهرت الحياة الثقافية في مدينة قسنطينة حتى أصبحت عاصمة من العواصم الدينية في المغرب الإسلامي، ولعّل ما ساعد على شهرتها تلك المؤسّسات الدينية التي عجّت بها، كالمساجد والزوايا والمدارس، ولعلّ أشهر البايات الذين كانت لهم علاقة بالعلماء والفقهاء وساهموا في بناء عدّة منشآت، هو صالح باي، ففي عهده بلغ عدد المساجد 75 مسجدا داخل قسنطينة، إضافة إلى 07 مساجد خارجها، وقد انصبّ اهتمامه أيضا على تشييد الكتاتيب والزوايا التي بلغت في عهده 13 زاوية (شرويك، 2018م، صفحة 575).

أمّا عن أهمّ المنشآت التي كانت في عهده، فكان جامع سيدي الكتاني الذي شيّده سنة 1189هـ/1775م، ثمّ المدرسة الكتانية التي بجانبه سنة 1202هـ/1787م، ثمّ الجامع الكبير ببونة سنة 1206هـ/1792م، هذا إضافة إلى بعض المدارس الأخرى كمدرسة "سيدي بوقصيعة" و"مدرسة سيدي ابن خلوف".

3. كراغلة قسنطينة:

1.3 معنى كلمة الكراغلة:

عندما دخلت العناصر التركية والانشكارية مدينة قسنطينة، حصل نوع من الارتباط، ونشأ عن ذلك الارتباط طبقة اجتماعية جديدة أطلق عليها طبقة الكراغلة، وهي جمع لكلمة "كرغلي"، وهي كلمة تركية محرّفة أصلها (kole-Ogul) ومعناها "ابن العبد" في إشارة إلى أبناء الانكشاريين الذين تزوّجوا من النساء الجزائريات، حيث كان الانكشاريون يعدّون من عبيد السلطان (معاشي، 2008م، صفحة 360).

2.3 مكانة الكراغلة في المجتمع القسنطيني:

بعد وصول الكراغلة إلى السلطة في الأقاليم الجزائرية، بدأت بوادر الصراع بالظهور بينهم وبين الحكام الأتراك حتى بلغ حدّ الفتنة والنفي، وبسبب ذلك رضي الكراغلة بنصيبهم من الامتيازات في قوائم الديوان كالرواتب وغيرها (قشي، 2013م، الصفحات 91–92)، ومع تزايد عدد أفراد هذه الطبقة الاجتماعية بتوافد الانكشاريين على قسنطينة، أصبح لهذه الطبقة وزن في المجتمع القسنطيني، حيث امتازت بامتلاك الأراضي، خاصة الخصبة منها، وكان غالبها داخلا في مسمّى "أراضي الوقف" كي تكون معفاة من الضرائب، وبسببها أصبح كراغلة قسنطينة من أصحاب الثروة والجاه ودخلوا في زمرة أعيان المدينة آنذاك، ويدلّ على ذلك جملة عقود الشراء والبيع والحبس المحفوظة في الأرشيف الذي تناول تاريخ قسنطينة (معاشي، 2008م، صفحة 362).

وبعد توطّن الكراغلة جيّدا في قسنطينة، بدأت تظهر بعض التكتّلات على شكل عائلات، فكان لها مكانة عند باي قسنطينة أو داي الجزائر، منها عائلة باش تارزي، وعائلة ابن كوجك علي، وعائلة شاوش الطيور، وعائلة اسطنبولي، وغيرها من العائلات.

4. الشيخ محمد ابن كوجك علي:

هو محمد بن إسماعيل بن محمّد بن محمّد بن كوجك علي (الزبيدي، 2006م، صفحة 663)، أبو عبد الله (صيد، 1994م، صفحة 81)، المكنّى بشمس الدين، وبأبي الإخلاص (الزبيدي، 2006م، صفحة 663)، الكرغلي. ولد على ما يبدو بعد منتصف القرن الثاني عشر الهجري بقسنطينة ونشأ فيها، في بيت عزّ وجاه، حيث كان قريبا من أصحاب الرياسة وقتها، ولقّب بابن كوجك علي، وفي بعض المصادر "ابن كجك علي" (الراشدي، 2021م، صفحة 51)، و"ابن كشك علي" (الزياني، 1991، صفحة 154)، وهذه الكلمة –أي كوجك– تعني الصغير باللغة التركية، بمعنى ابن علي الصغير.

أخذ العلم ودرس على يد علماء قسنطينة آنذاك وحضر دروسهم، من بينهم الشيخ عبد القادر الراشدي، والشيخ محمد بن أحمد بن قاسم البوني، وغيرهم، وترقّى في المناصب إلى غاية أن أصبح صالح بايًا على قسنطينة، فقرّبه منه وجعل رئيسا للكتّاب (الزبيدي، 2006م، صفحة 663)، وأوكل إليه عدّة مهام.

1.4 رحلته إلى الحجاز ولقاؤه بالشيخ مرتضى الزبيدي:

لمّا سافر الشيخ محمد ابن كوجك علي سنة 1196هـ لأداء فريضة الحجّ، مكث مدّة بمصر، فجالس علماءها وأخذ عنهم بعض العلم، لكنّه قضى جلّ وقته هناك مرابطا عند الشيخ مرتضى الزبيدي، الذي ذاع صيته

آنذاك بعد دخوله مصر، فسمع منه حديث الرحمة المعروف بالحديث المسلسل بالأوّلية، وسمع منه بعض الأحاديث من صحيح البخاري، وخطبة كتاب «جامع الرموز في فقه المذهب الحنفي» (الزبيدي، 2006م، صفحة 663).

وبعدما رجع من الحجاز، رجع إلى الشيخ مرتضى الزبيدي، فلازمه طول الوقت، وكان يتردّد عليه مرتين في الأسبوع، فسمع منه بعضا من شرح «القاموس المحيط»، وبعضا من شرح كتاب «الإحياء»، وقد حصّل الشيخ ابن كوجك علي بعض كتب الشيخ مرتضى الزبيدي منها «ألفية السند»، و«مناقب أصحاب الحديث»، و«شرح الحزب الكبير»، و«الأمالي الشيخونية» (الزبيدي، 2006م، صفحة 664).

لكنّ الأمر المهمّ في تلك الجلسات العلمية هو ما نتج عنها، حيث ألّف الشيخ مرتضى الزبيدي مجموعة من الكتب بطلب من الشيخ محمد ابن كوجك علي، منها كتاب «عقود الجواهر المنيفة في أصول أدلّة الإمام أبي حنيفة» (الزبيدي، 2006م، صفحة 664)، وعند الاطلاع على قيد الفراغ لهذا الكتاب نجد أنّ ما كتبه الزبيدي موافق لذلك التاريخ حيث قال في آخره: «وقد وافق تحريره في مدة أربعة أشهر عشية يوم الاثنين لثمان بقين من شهر ربيع الأوّل من شهور سنة 1197 هجرية بمنزلي بسويقة لالا من مصر حرسها الله وسائر بلاد الإسلام بمنّه وكرمه آمين» (الزبيدي، 2017م، صفحة 554/2).

وقد ألّف الزبيدي باسمه أيضا عدّة رسائل منها: رسالة «الانتصار لوالدي النبي المختار» والتي استغرقت من الزبيدي ليلة واحدة (الزبيدي، 2006م، صفحة 664)، وهذه الرسالة الآن في عداد الرسائل المفقودة، ولم أعثر لها على خبر إلّا خبرا أورده الكوثري عنها حيث قال إنّه اطلّع على نسخة منها بخطّ الزبيدي، بمكتبة شيخه أحمد بن مصطفى العمري الحلبي (أبو–حنيفة، 1368هـ، صفحة 7). وألّف أيضا باسم ابن كوجك علي رسالة في مناسك الحجّ سمّاها «إعلام الأعلام لمناسك حج بيت الله الحرام»، وغيرها من الرسائل (الزبيدي، 2006م، صفحة 664).

ثمّ ذكر الزبيدي التماس ابن كوجك علي له لكتابة مجموعة من أسانيد الكتب التي سمعها منه، فقال: «فالتمس منّي أن أكتب له أسانيد ما سمعه منّي، وتلقاه عنّي، وسند لبس الخرقة، وأضيف إليه السند الجامع في الفقه المتصل إلى إمام الأمة أبي حنيفة النعمان –رضي الله عنه– ثم أسانيد بعض كتب المذهب المتداولة بين الأصحاب أصولا وفروعا، فأجبته إلى ذلك المقصد الأسنى، وأَبَحْتُ له نجاز مطلبه الأسمى...ثمّ ذكرتُ تلك الأسانيد وهي في كراسة» (الزبيدي، 2006م، الصفحات 664–665).

وجدير بالذكر أنّ الزبيدي قال إنّ هذه الرحلة التي قام بها الشيخ محمد ابن كوجك علي إلى الحجاز، كانت ضمن وفد كبير من أعيان مدينة قسنطينة بداية بالشيخ مسعود ابن زكري وزير صالح باي، والشيخ ابن بدر الدين الفكون أمير الحج لهذا الوفد.

2.4 القيمة العلمية للشيخ محمد ابن كوجك علي:

يبدو أنّ الشيخ محمد بن إسماعيل كان عالمًا معتبرا في قسنطينة، فقد وصفه الشيخ عبد القادر الراشدي بالعلّامة الأكمل والدرّاكة الأمثل، كاتب السلطنة ودافع الشيطنة، ثمّ كتب له إجازة كانت بمنزلة فهرسة لشيوخه الذين أخذ عنهم العلم (الراشدي، 2021م، صفحة 51)، وقال عنه الشيخ مرتضى الزبيدي إنّه سبق في ميدان العلوم واجتهد في تحصيل منطوقها والمفهوم، وقد جاء في أحد العقود ذكرٌ لتلك القيمة، وفيه: «الحمد لله، بعد أن استقرّ على ملك العلّامة المحقّق، الفقيه النحرير، الموفّق، السيّد محمد بن الأفضل الخيّر الأشمل السيّد إسماعيل بن المرحوم السيّد محمد بن كوجك...» (قشي، 2009م، صفحة 85). أمّا الشيخ محمد بن أحمد بن قاسم البوني فقد قال عنه إنّه: «الفقيه الماهر والقمر المضيء الزاهر، الطيّب الشيم والأخلاق ومعدن الكرم والجود والإرفاق، أبو عبد الله سيدي محمد ابن كشك علي» (صيد، 1994م، صفحة 86).

ويبدو أنّ الشيخ محمد ابن كوجك علي كان ينظم بعض الأبيات، ومن ذلك مدحه للكتاب الذي ألّفه الشيخ عبد القادر الراشدي في تحريم الدخان المسمّى «تحفة الإخوان في تحريم الدخان» حيث قال فيه (الراشدي، 2021م، صفحة 216):

أترك اللهو وشرب القصب الحق ولازم مذهبي
لا تقل في بيع التبغ صاح جائز ليس هذا من أصول المذهب
فعد من حجّة داحضة ردّها أستاذ المغرب

3.4 القيمة السياسية للشيخ محمد ابن كوجك علي:

بعد اعتلاء صالح باي سدّة الحكم في قسنطينة، قرّب منه الشيخ محمد ابن علي كوجك وجعله رئيسا للكتّاب بالسلطنة آنذاك، بل إنّه كان ينوب عنه في بعض القضايا الخاصة به، منها قضية الوقف التي رفعتها السيّدة آمنة بنت صالح باي ضدّ والدها، فحضر الشيخ محمد ابن كوجك علي تلك القضية بالنيابة عن صالح باي، وذلك كي لا يتقابل –فيما يبدو– الوالد وابنته كطرفي نزاع، حيث جاء في مقدّمة نصّ الحكم: «الحمد لله، حضر بالمحكمة الشرعية من قسنطينة المحروسة بالله تعالى العلّامة الفقيه السيّد محمد بن كوجك علي بنيابته عن الحضرة العلية مولانا الأسعد سيّدنا صالح بي خلّد الله دولته كما ينبئ عليه طابعه السعيد المرتسم بالطرّة، وحضر معه الفاضل الأجلّ السيّد رضوان خوجة بما له من النظر والنيابة على السيّدة آمنة...» (قشي، 2009م، صفحة 67).

وبعد وفاة الشيخ مسعود ابن زكري وزير صالح باي، أصبح الشيخ محمد ابن على كوجك وزيرا جديدا لصالح باي، وفي ذلك يقول الزبيدي: «وفي أثناء ذلك، توفيّ وزيره المسمّى بابن زكري، وكان عندهم من الصولة

بمكان، فقام المترجم له– أي ابن كوجك علي– مقامه وساس الرعية أحسن سياسة، مع كمال حبّ وسلامة صدر، وحسن عشرة ووفاء عهد» (الزبيدي، 2006م، صفحة 665).

ولا شكّ أنّ تلك القيمة السياسية التي اكتسبها محمد ابن كوجك علي انجرّ عنها امتلاكه لبعض الأملاك داخل مدينة قسنطينة وخارجها، ويشهد لذلك ما جاء في سجل صالح باي للأوقاف حيث استقرّ على ملكه دار كبيرة مع إسطبل كانت قريبة من الجامع الأعظم بقسنطينة (قشي، 2009م، صفحة 85)، واستقر على ملكه هو وأخيه محمود جميع الأراضي المعروفة بالجبسات الموجودة خارج ميلة (قشي، 2009م، صفحة 90)، واستقر أيضا عليه وعلى أخيه أراضي في جبل الزيتون الموجودة بوطن الحامة (قشي، 2009م، صفحة 91).

4.4 محنة الشيخ محمد ابن كوجك علي:

بعد زوال دولة صالح باي سنة 1207هـ ومقتله على يد حسين بن حسن بوحنك، وتقلّد هذه الأخير منصب باي قسنطينة، تبدّلت الأمور وأصبحت حاشية صالح باي محطّ سخط من طرف الباي الجديد لقسنطينة، وكان من بينها الشيخ محمد بن علي كوجك، فقد سلبت كلّ أمواله وصودرت كلّ أملاكه، وقد عاصر تلك المحنة الشيخ أبي القاسم الزياني وذكرها في كتابه «الترجمانة الكبرى» حيث قال: «وممن قدم علينا بعد قدوم الباي من حركته، الكاتب الأديب الخوجة الكبير، كان مع صالح باي قبل هذا، ولمّا تولّى هذا نكبه وأخذ منه أموالا عريضة لا تعدّ ولا تحصى، وهو السيّد محمد بن كشك علي كرغلي، واستدعاني لبيته بقصد أن يطلعني على حاله وما آل إليه أمره من سوء الحال، ليسلّيني بذلك، ولم أشعر إلّا بعد حصولي في البيت، فما وجدتُ إلّا الحصر إلى الآن لم يخلف آلته وفرشه...» (الزياني، 1991، صفحة 154).

ثمّ ذكر الزياني على لسان ابن كوجك علي العيشة البائسة التي كان يعيشها بعدما بلغ من الكبر عتيا حيث قال: «...ثمّ بعد ذلك سجنتُ ونهبت الدار بما فيها من الأثاث واللباس والفرش، وجميع ما في العزبان من خيل وبغال وإبل وغنم وبقر، وما في المطمر من زرع وفطاني ممّا لا أعرف له عددا. ولمّا سرّحني ألزمني لهذه الخدمة المشؤومة وطلبته في الإعفاء فأبى، وها أنا كما ترى على كبر سنّي أطلب العتق من الرقبة وأقنع بالحرية فما ظفرت بها» (الزياني، 1991، الصفحات 154–155).

لكن مع هذا فقد بقي الشيخ محمد ابن كوجك كاتبا لحسين باي، وهذا ما أكدّه أبو القاسم الزياني بعدما ذكر قصة التقائه بالباي، حيث قال: «ودخل مقصورة أخرى، ووجّه لي كاتبه الكبير محمد بن كشك علي، فأدخلني عليه وأتى بالقهوة فشربت، وسار كاتبه أن ينزلني بداره وخرجتُ معه إلى الباب فقال لي: تتوجّه عندي للدار. فقلت: إنّ

دارك بالقلعة وأنا مجاور للمسجد اجتمع مع الطلبة به، وبيتك بعيد عنّا فلا انتقل من محلّي، فأسعفني وتوجّه لبيته وتوجّهتُ لمحلّي الذي أنا به» (الزياني، 1991، الصفحات 155–156).

ويبدو أنّ تلك المحنة لم تطل كثيرا بالشيخ ابن كوجك علي، فقد أصيب حسين باي بمرض أقعده حتّى تعطّلت أحكامه، فأمر الباشا بقتله، وكان ذلك سنة 1209هـ (العنتري، 2009م، صفحة 67).

5.4 وفاة الشيخ محمد ابن كوجك علي:

في الواقع أنّ سنة وفاة الشيخ محمد ابن علي كوجك غامضة، وقد أشكل عليّ ما ذكره الأستاذ سليمان صيد حيث ذكر أنّه توفيّ بعد سنة 1246هـ، وذلك استنادا على كتاب كان قد نسخه محمد ابن كوجك علي في تلك السنة، لكن لو تمعّنا جيدّا في حياة ابن كوجك علي نجد أنّه سنة 1189هـ قد وُصِفَ بالفقيه الماهر من طرف الشيخ محمد بن أحمد بن قاسم البوني، ولمّا كانت سنة 1209هـ وَصَفَ نفسه بأنّه كبير السنّ على حدّ قول أبي القاسم الزياني، فلو قدّرنا أنّه سنة 1189هـ كان في عمر الثلاثين، فسيكون عمره سنة التقائه بأبي القاسم الزياني –أي سنة 1208هـ– 50 سنة، وسيكون عمره سنة 1246هـ حوالي 87 عاما، وهو عمر متقدّم جدّا بالنسبة لرجل ناسخ للكتب.

ومن جهة أخرى، فقد وقفتُ على مخطوطتين لمحمد المصطفى بن محمد ابن كوجك علي، الأولى منسوخة بخطّ يد سنة 1230هـ، والثانية هي "رحلة ابن بطوطة" عليها تملّكه سنة 1240هـ، وهي محفوظة بالمكتبة الوطنية بباريس تحت رقم 2289، وهو على أغلب الظن أحد أقاربه، لذا فمن المرجّح أن يكون هو من نسخ الكتاب الذي تحدّث عنه الأستاذ سليمان صيد، خاصة إذا علمنا أنّ عائلة ابن كوجك علي كانت تمتهن الكتابة عند الباي، ولذا فالذي يترجّح لي –والله أعلم– أنّ الشيخ محمد بن إسماعيل ابن كوجك علي توفّي بعد سنة 1209هـ، وهذا الرأي راجع لعدم اطّلاعي على الكتاب الذي ذكره الأستاذ سليمان صيد، والفصل في سنة وفاته.

6.4 الكتب الموقوفة من طرف الشيخ محمد ابن كوجك علي:

كان الشيخ محمد ابن علي كوجك جمّاعة للكتب، حيث اقتنى عدّة كتب من بعض المدن التي زارها، وقد ذكر الأستاذ سليمان صيد أنّ الشيخ محمد ابن كوجك علي لم يكن يملك الكتب بالشراء فقط بل كان ينسخها بيده ويضمّها إلى مكتبته الكبيرة، وقال إنّه رأى له كتابا منسوخا بيده اسمه "الفتوح المولوية في نشر بعض المحاسن العلوية" لمؤلّفة الشيخ أحمد بن المهدي الغزال الفاسي كاتب السلطان المغربي، حيث نسخة ابن كوجك علي سنة 1246هـ (صيد، 1994م، صفحة 85). وقد اطّلعتُ على مخطوط نسخه بيده أيضا وهو "مبرز القواعد الإعرابية

من القصيدة المجرادية" لصاحبه الشيخ علي بن أحمد الجزولي الرسموكي، والمخطوط ضمن مجموع بمكتبة جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة تحت رقم 160/5، وقد أفادتني الأستاذة المحقّقة نصيرة عزرودي بصور منه.

ويبدو أنّ إغداق الشيخ محمد ابن كوجك علي على العلماء واهتمامه بهم، جعلهم يبادرون بإرسال الكتب له عربون محبّة وشكر، ومن ذلك ما فعله الشيخ محمد ابن الشيخ أحمد بن قاسم البوني حيث أهداه كتاب "حث الوارد على حبّ الأوراد" الذي ألّفه والده، وذلك بعدما نسخه باسمه سنة 1189هـ (صيد، 1994م، الصفحات 85-86)، ويؤكّد ذلك أيضا ما مرّ بنا سابقا حول الكتب التي ألّفها الشيخ مرتضى الزبيدي باسمه، حيث قال إنّه: «ارتفع جاهه ووفدت عليه العلماء من كلّ أوب، وهو يكرمهم ويقبل عليهم، ويقضي حوائجهم عند الأمير» (الزبيدي، 2006م، صفحة 665).

وقد حبس ابن كوجك علي في حياته جزءا منها، وثّقته بعض العقود التي كان يكتبها في بداية كل كتاب ومن ذلك كتاب «مشارق الأنوار النبوية في صحاح الأخبار المصطفوية»، حيث حبسه على أولاده الذكور بشرط القراءة، فإذا انقرضوا كان الحبس على أولاد شقيقه محمود، ثمّ ذهب الحبس إلى العائلة إلى أن ينقرضوا جميعا، عندها ينتقل الحبس إلى المسجد الجديد والمدرسة التي بجنبها، والتي أنشأها صالح باي، وكان تاريخ الحبس في أواسط جمادى الآخرة من سنة 1201هـ، وهذا الكتاب محفوظ الآن بالمكتبة الوطنية بباريس تحت رقم: 739.

وتأتي بعض الكتب الأخرى الموقوفة بنفس الصيغة منها:

- مجموع من الرسائل سنة 1194هـ، وهو محفوظ بالمكتبة الوطنية بالجزائر تحت رقم: 714.
- كتاب «الهداية»، حبسه سنة 1201هـ (صيد، 1994م، صفحة 83).
- كتاب «كنز الحقائق في حديث خير الخلائق»، حبسه سنة 1208هـ، وهو محفوظ بالمكتبة الوطنية بباريس تحت رقم: 777.
- الجزء الأوّل من صحيح البخاري، حبسه سنة 1208هـ، وهو محفوظ بالمكتبة الوطنية بباريس تحت رقم: 689.
- الجزء السابع من شرح العيني على صحيح البخاري، حبسه سنة (صيد، 1994م، صفحة 85)
- شرح الشمائل المحمدية منسوخ سنة 1198هـ، حبسه سنة 1208هـ، وهو محفوظ بالمكتبة العبدلية بجامع الزيتونة بتونس (العبدلية، 1327هـ، الصفحات 251/2-252).

5.خاتمة:

كانت هذه الورقة البحثية قراءة في سيرة أحد العلماء الكراغلة بمدينة قسنطينة، وهو الشيخ محمد بن إسماعيل ابن كوجك علي، وقد استعرضت جانبا من حياته ونشأته على ما توفّر من المصادر المخطوطة أو المطبوعة، وبالرجوع إلى بعض الوثائق الأرشيفية، ثمّ استعرضت جانبا من حياته العلمية ورحلته إلى الحجّ وما وقع له مع الشيخ محمد مرتضى الزبيدي، ثم استعرضت جانبا من حياته السياسية وعلاقته الوطيدة بصالح باي، ثمّ محنته بعد مقتل صالح باي وتقلدّ حسن باي مقاليد الحكم في قسنطينة، وقد عرّجت الورقة على إسهامات الشيخ محمد بن إسماعيل في إثراء مدينة قسنطينة بالكتب التي كان يقتنيها أو يستكتبها من العلماء.

ولهذا فقد خرجت هذه الورقة بعدة نتائج تاريخية منها:

- فتح المجال من أجل دراسة تاريخ الكراغلة من الناحية العلمية، وتسليط الضوء على الجهود التي قاموا بها بقسنطينة والجزائر وغيرهما من المدن الجزائرية.
- عدم حصر الدراسات في التاريخ السياسي فقط للأتراك بالجزائر، بل بتقصي الجانب الثقافي والمعرفي الذي ما يزال مجالا خصبا للبحث والتنقيب.
- إبراز مدى تعامل سكان مدينة قسنطينة خاصة ساستها وحكامها مع قضية وقف الكتب على المساجد والمدارس التعليمية.

6. قائمة المراجع:

- الزياني، أبو القاسم، (1991)، الترجمانة الكبرى، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، دار نشر المعرفة، الرباط.
- النعمان، أبو حنيفة، (1368هـ)، العالم والمتعلم، مطبعة الأنوار، مصر.
- فهرس المكتبة العبدلية، (1327هـ)، المطبعة الرسمية العربية، تونس.
- معاشي، جميلة، (2008م)، الإنكشارية والمجتمع ببايلك قسنطينة، رسالة دكتوراه، قسم التاريخ والآثار، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، الجزائر.
- صيد، سليمان، (1994م)، نفح الأزهار عما في مدينة قسنطينة من الأخبار، الجزائر.
- الراشدي، عبد القادر، (2021م)، تحفة الإخوان في تحريم الدخان، الجزائر.
- الراشدي، عبد القادر، (2021م)، فهرسة عبد القادر الراشدي، تحقيق نصيرة عزرودي، دار خيال للنشر والترجمة، الجزائر.
- قشي، فاطمة، (2009م)، سجل صالح باي للأوقاف، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، الجزائر.
- قشي، فاطمة، (2013م)، قسنطينة في عهد صالح باي، دار مداد يونيفارسيتي براس، الجزائر.
- العنتري، محمد، (2009م)، تاريخ قسنطينة، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر.
- ابن ميمون، محمد ، (1981م)، التحفة المرضية في الدولة البكداشية، تحقيق محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للطبع والنشر، الجزائر
- شرويك، محمد، (2018م)، جهود محمد الكبير وصالح باي في تشجيع حركة الثقافة والتعليم في الجزائر العثمانية على ضوء المصادر المحلية والأجنبية، مجلّة العلوم الإسلاميّة والحضارة، العدد 8، الصفحات 565-584.
- الزبيدي، مرتضى، (2006م)، المعجم المختص، تحقيق محمد بن ناصر العجمي، دار البشائر، لبنان.
- الزبيدي، مرتضى، (2017م)، عقود الجواهر المنيفة في أدلّة مذهب الإمام أبي حنيفة، مراجعة نفيس المصباحي، نشر الجامعة الأشرفية، الهند.
- زيان، إسماعيل، (2022م)، الشيخ يحيى الشاوي حياته وأسفاره وشيء من آثاره، دار خيال للنشر والترجمة، برج بوعريريج، الجزائر.
- سعد الله، أبو القاسم، (2007م)، تاريخ الجزائر الثقافي، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر

7. ملاحق:

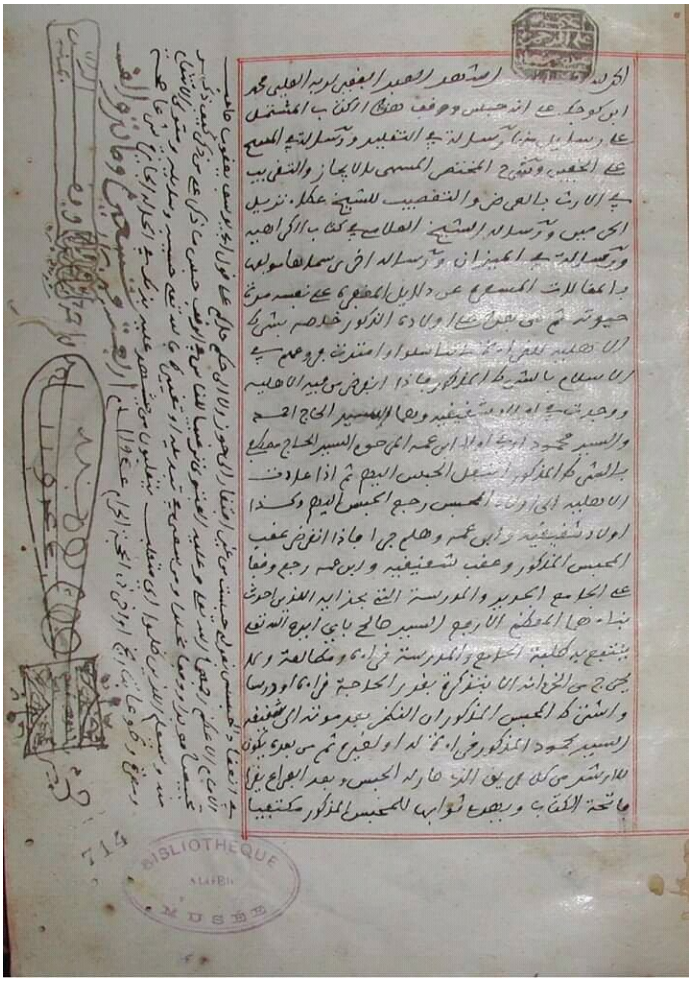

عقد حبس محمد ابن علي كوجك لمجموع من الرسائل

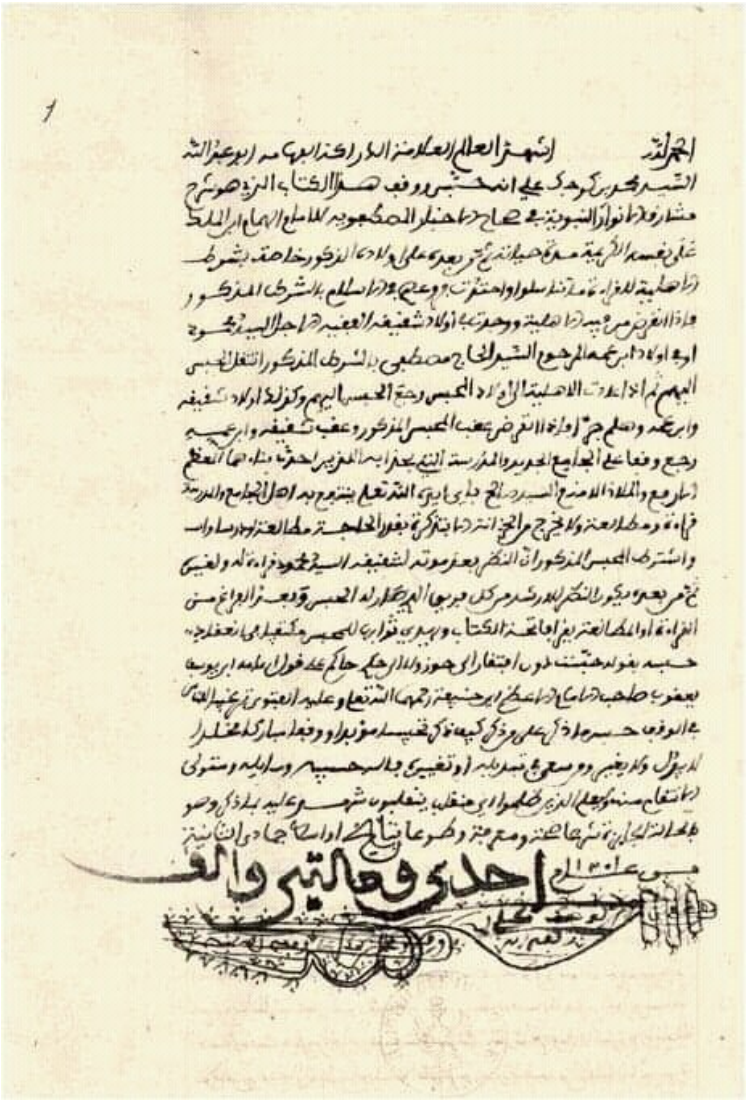

عقد حبس محمد ابن علي كوجك لكتاب

مشارق الأنوار النبوية في صحاح الأخبار المصطفوية

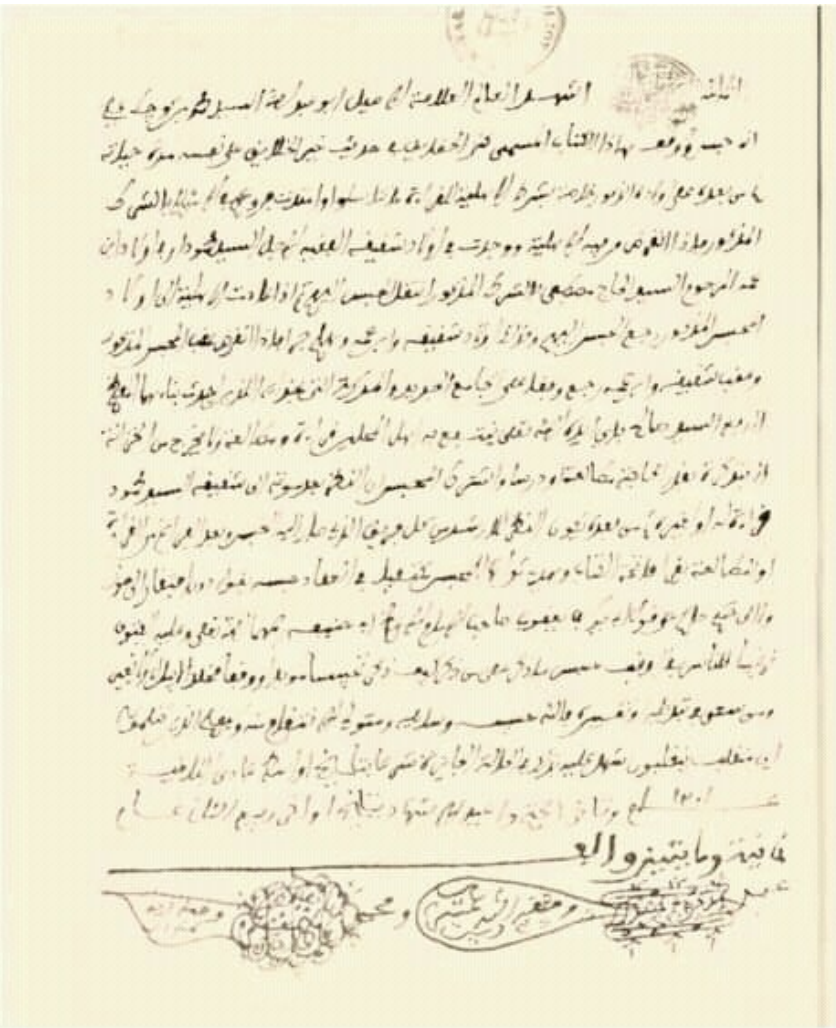

عقد حبس محمد ابن علي كوجك لكتاب كنز الحقائق في حديث خير الخلائق

عقد حبس محمد ابن علي كوجك لكتاب لجزء من صحيح البخاري